

## التفكير الإبداعي والنقدي

في ملتقى بالجامعة العالمية الإسلامية بماليزيا

14 - 15 ديسمبر 2005

البشير صوالي\*

الإبداع إحدى الخصائص المميزة للإنسان باعتباره الكائن القادر على توظيف ملكة العقل التي أودعها الله فيه من أجل تغيير الوجود من حوله. بيد أن الملكة النقدية والقدرة على تقييم الأعمال بشكل موضوعي للوقوف على إيجابياتها لتعزيزها وتحديد سلبياتها لتجاوزها قد تضمر ويحصرها الرجل من مواجهة الذات سواؤ بصورة فردية أو بصورة جماعية. والمجتمع الإسلامي المعاصر ليس حالة استثناء من هذه القاعدة العامة، حيث يلاحظ أن هناك عجزاً واضحاً عن نقد الذات والتفكير بصورة إبداعية لتجاوز حالات التقهقر والتخلف، بل إن وضع العالم الإسلامي الحرج في الخارطة العالمية يجعله أكثر حاجة لمثل هذا النقد والإبداع.

وانطلاقاً من هذا المنظور جاء الملتقى الوطني الذي نظمته كلية الوحي والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا عبر قسم الدراسات العامة يومي 14 و15 ديسمبر 2005 ليعالج هذه الاشكالية بواسطة مجموعة من البحوث التي قدمها عدد من

\* أستاذ مساعد في قسم الدراسات العامة بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

الباحثين والمتخصصين. ويسعى الملتقى لإيجاد الإطار المناسب للاهتمام بالتفكير الإبداعي والنقدي باعتباره نشاطاً إنسانياً منظماً لا يخضع للارتجال والصدفة، وخاصة بالنسبة للمؤسسات التعليمية التي تقع عليها مسؤولية تأهيل الطاقات والأطر الحيوية للاضطلاع بمسؤولياتها في النهضة والتقدم.

وقد سعى الملتقى إلى تحقيق العديد من الاهداف نلخصها في النقاط الآتية: أ) نشر ثقافة التفكير الإبداعي والنقدي في الأوساط الإسلامية وخاصة الأوساط الجامعية. ب) استنهاض المنهجية الإسلامية حتى تمارس تأثيرها في بناء الفكر الإسلامي وفقاً للأسس الإسلامية. ج) إعادة فحص التساؤلات التقليدية حول التفكير الإنساني في ضوء النظريات المعاصرة التي تهتم بالفكر النقدي والإبداعي. د) تنمية مهارات التفكير الإبداعي والنقدي للطلبة والأساتذة.

وقد حددت الهيئة المنظمة للملتقى عدة محاور لمعالجة الإشكالية المطروحة في الملتقى بدءاً بالحوار النظري والتطبيقي للفكر الإبداعي والنقدي، وكذلك المقاربة الإسلامية لهذا الحقل المهم في مختلف المجالات التي شكلت إبداع المسلمين، سواء مجالات الدراسات الإسلامية مثل الفقه والأصول والتفسير، أو مجالات العلوم الطبيعية، والاقتصاد، والعلوم الاجتماعية، والقانون. ولم تهمل إدارة الملتقى الاهتمام بالمقاربة النقدية المقارنة التي تضع المدخل الإسلامي في مواجهة المداخل الأخرى التي تنامي في الفكر الإنساني المعاصر، كما اهتمت بطرح الحلول للعوائق المنهجية التي تحول دون ازدهار الاهتمام بالتفكير الإبداعي وخاصةً من الزاوية البيداغوجية، والتربوية، وكيفية جعل هذا الحقل يحظى باهتمام المربين وواضعي المناهج العلمية في الجامعات والمدارس العليا.

ومن خلال تتبعنا لمختلف الأوراق التي عرضت في الملتقى وداخل الجلسات التي ضمت مجموعة من الفعاليات التي طرحت مقارباتها من زوايا متنوعة، وثرية أمكننا تقديم هذه القراءة الموجزة لأهم القضايا التي عالجتها البحوث المقدمة في الملتقى.

انطلقت فعاليات الملتقى بكلمات افتتاحية وترحيبية قصيرة تحدث فيها كل من رئيس الجامعة تان سري سنوسي بن جنيد ونائب المدير الدكتور محمد عزمي عمر، وعميد كلية علوم الوحي والعلوم الإنسانية الدكتور عزيزان محمد نون، وكذلك رئيس قسم الدراسات العامة الدكتور عبد السلام محمد شكري، وتضمنت كلماتهم ترحيباً بالحضور والباحثين المشاركين في الملتقى من داخل ماليزيا وخارجها وإشادةً بموضوعه وتأكيدها لأهميته.

وقد أكد رئيس الجامعة فكرة المزاوجة بين النظرية والتطبيق حتى ولو كان الأمر على مستوى ضيق ومحدود، فكثير من الأفكار العبقريّة لم تتح لها الفرصة للتأثير إيجابياً في المجتمعات الإسلامية؛ لأنها بقيت تنتظر الفرص الكبرى التي لا تأتي بسهولة. وضرب مثلاً على مشكلة النقود الورقية التي يعاني منها العالم المعاصر وخاصةً إزاء الدولار الأمريكي الذي يهيمن على العالم دون أن يكون له سند قوي من الاقتصاد النامي في الولايات المتحدة الأمريكية. وقدم مقترحاً طريفاً وهو خلق عملة جامعية على مستوى الجامعة لتعليم الجامعيين مفهوم تكوين العملة ومفهوم التبادل الدولي بطريقة عملية ترسخ المفاهيم في أذهان الطلبة والأساتذة حتى يفهموا المشكلات الكبرى في نطاق العالم المعاصر.

وبعد الافتتاحية انطلقت فعاليات الملتقى التي توزعت على خمس جلسات ناقشت 28 بحثاً تناولت زوايا مختلفة لإشكالية التفكير النقدي والإبداعي. وكانت الورقة الأولى للأستاذ الدكتور عثمان بكر من المعهد العالمي للفكر والحضارة الإسلامية (ISTAC) وكان عنوانها: "التفكير في الفكر الإبداعي: وجهة نظر إسلامية". تطرق المحاضر إلى المنظومات المعرفية الإنسانية الكبرى التي شكلت محطات رئيسية في الفكر البشري بدايةً من فلاسفة اليونان وإلى وقتنا المعاصر، معتبراً أن الفكر الإسلامي ترك بصماته على منظومات المعرفة البشرية سواء في الجوانب القانونية أو في علوم اللغة، أو في مناهج التاريخ والاجتماع، أو في علوم الطب والكيمياء

والرياضيات والفلك. فالأمة الإسلامية بوصفها حلقة وسيطة أبدعت الأنظمة المعرفية التي نقلت الإنسان من عصر اليونان "السادج" إلى عصر الفكر الإبداعي والنقدي والمقارن الذي ازدهر بفعل تأثير القرآن الذي أشاد بالعقل وطالب الإنسان أن يؤسس إيمانه وقناعاته على الاستدلال ورفض التقليد والإمعية والأبائية.

ومن الأوراق التي نوقشت في الجلسة الأولى ورقة الدكتور جمال أحمد بادي من جامعة الفاتح بليبيا، وقد عالج فيها موضوعاً مهماً يتعلق بمهارات تدريس الفكر الإبداعي للمتعلمين وتدريبهم عليه. ذلك أن التفكير الإبداعي في حد ذاته مهارة من المهارات التي تكتسب بالتعلم كغيرها من المهارات. وقد عالج المحاضر بعض العوائق والمشكلات التي تواجه تعليم هذه المهارات وعزا بعضها للمتلقين. ولذلك فإن كل حقل معرفي له آليات تفكير تخصه بناءً على طبيعة الحقل المعرفي ذاته.

وتناولت ورقة آلان ماك لين من جامعة تون عبد الرزاق بماليزيا "أهمية التفكير النقدي في تحويل المعلومات إلى نطاق آلي"، مركزاً على أهمية اكتشاف العلاقة الوثيقة بين الاختراعات التقنية والظواهر الاجتماعية التي تشكل العلاقة بين الفكر الإنساني والإبداع التكنولوجي. وخلص الباحث إلى أن الاختراعات المعاصرة في مجال تقنية المعلومات (Information Technology) قد سهلت عملية الحصول على المعلومات بشكل كبير جداً وغير مسبوق في التاريخ، الأمر الذي أوجد نوعاً من التمايز بين المعرفة التي مصدرها المعلوماتية والمعرفة التي ليست كذلك، أو بعبارة أخرى المعرفة التي نحن في حاجة إليها وهي مصدر للإبداع والتطوير الحقيقي، وهي تلك المعرفة التي لا تستطيع الآلة أن تستوعبها، ومن ثم تبقى خاضعة لقدرة الإنسان على التفكير اللامحدود. بينما الفكرة التي تتحول إلى الآلة تصبح جامدة وغير قادرة على التغيير.

ومن الأوراق التي نوقشت في الملتقى ورقة الدكتور أحمد الشيخ عبد السلام من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا وعنوانها "التعبير الإبداعي عن الفكر الإبداعي: أممؤذج تفاعل". وهذه الورقة نقلتنا إلى أجواء أداة التعبير - أي اللغة - التي يمكنها أن تعبر

عن الفكر الإبداعي المنبئ عن مستوى عقلي رفيع. وعالجت الورقة العلاقة الجدلية بين الفكر واللغة الإبداعية. فالتعبير يحتوي على مفاهيم فكرية، حتى أن اللغة ذاتها أداة مساعدة للتفكير كما ذهب إليه المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي الذي يرى إلى أن المقدرة العقلية تعين المتكلم على الابتكار في إنتاج عدد لا يحصى من الجمل وفهمها. ومن ثم يمكن التعرف على الفكر المبدع بواسطة مضمون التعبير بداية من الأشكال والصور المتضمنة للمعلومات الفكرية والرموز والكنائيات والمعاني والسلوك غير اللغوي المصاحب للتعبير. وهكذا تكون الروح الإبداعية والقدرة على التطوير مؤثراً إيجابياً في كل من التعبير والتفكير على حد سواء كما خلص الباحث.

وحول التفكير التشريعي قدمت ورقة مزدوجة لكل من الدكتور يونس صوالحي والدكتورة غالية بوهدة من قسم الفقه وأصول الفقه عالجت مفهوم الإبداع ومشروعيته في الفكر التشريعي الإسلامي، حيث يصبح الإبداع ثمرة من ثمار الاجتهاد في الفكر التشريعي الفقهي، وقد تتمثل في الكشف عن معنى تشريعي جديد أو تحديد ضوابط في الاجتهاد تقتضيها المستجدات المعاصرة، أو إعادة النظر في مسائل اجتهادية قديمة. واعتبر الباحثان أن الكلام عن الإبداع الفكري في المجال التشريعي هو كلام في "الاجتهاد"، لكن ليس كل إبداع اجتهاداً، بل هناك ضوابط وقواعد ومستلزمات تكسبه المشروعية. وعرج الباحثان على العوائق التي تحول دون بروز الإبداع في الفكر التشريعي الإسلامي، وقد حصروا الأمر في ضعف السياسات التعليمية وعجزها وقصور مناهج التكوين التي تعتمد على مجرد التلقين والحفظ، وكذلك ضعف تنسيق المادة العلمية وتحديثها حتى تتناسب مع لغة العصر.

ومن جامعة العلوم الإسلامية بماليزيا (KUIM) قدم الدكتور محمود محمد علي بحثاً بعنوان: "ضرورة تكامل مقومات تنمية مهارات التفكير الإبداعي في النهضة التربوية"، أكد فيها ضرورة أن يصبح الإبداع هماً مشتركاً بين جميع أطراف العملية التعليمية حتى يخرج التعليم برمته من دائرة التلقين إلى دائرة الإبداع.

وعالجت ورقة الدكتورة ليلي رامي معضلة "غياب القلم النسائي في التراث الإسلامي"، وهو موضوع طريف يستحق الاهتمام والمتابعة. وقد أكدت الباحثة أن كثيراً من العلماء والشيوخ تحدثوا عن "الشيخات" اللواتي أخذوا عنهن العلم والأدب، ولكن بكل أسف لم يحظ هؤلاء باهتمام من طرف تلاميذهن، لا من حيث تدوين أقوالهن ومذاهبهن ولا حتى من حيث تسجيل حياتهن. وذكرت الباحثة على سبيل المثال أن ابن حجر الذي أحصى تلاميذه له أكثر من 54 شيخة لم يعرف في كتابه الأعلام إلا واحدة فقط! وتساءلت الباحثة عن سر هذا الضمور في الاهتمام بإسهام المرأة الباحثة، هل هو نقص في الملكة الإبداعية أم أن هناك إهمالاً متعمداً لتراث المرأة المسلمة؟

وعلى صعيد آخر تناول محمد الطاهر الميساوي من الجامعة الإسلامية العالمية جوانب النقد والإصلاح في جهود الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور لإصلاح مناهج التربية والتعليم الإسلامي وتطويرها. واعتبر الباحث أن الشيخ ابن عاشور كان يمتاز بملكة نقدية عززها بإبحاره في علوم الوحي والمعارف الدينية مما جعله يمتلك القدرة على النقد المنهجي لأسلوب التعليم، وهذا ما دفعه للتفكير ملياً في إصلاح المناهج وتطويرها حتى تفيد المتعلم وتجعله قادراً على مواكبة العصر بكل تحدياته.

وأكد الباحث أن النظرات العلمية التي انبثقت عنها رؤية ابن عاشور الإصلاحية في مجال التعليم لا تزال صالحةً إلى يومنا هذا. فالشيخ ابن عاشور بدأ بتقديم أطروحة نقدية شاملة لمناهج التعليم والتحصيل في حقل الدراسات الشرعية الإسلامية، ولم يكتف بذلك بل ناضل من أجل إصلاح هذه المناهج متجاوزاً العقليات التقليدية الوجلة من كل محاولة للإصلاح والتحسين بدعوى الخوف من ضياع روح العلم. وكانت النقلة النوعية التي أحدثها ابن عاشور بين سنتي 1945 و1947، وذلك بإدخال تغييرات جوهرية على مناهج التلقي العلمي وإدخال دروس جديدة مثل الحساب والجبر والفيزياء والكيمياء وعلم الفلك والجغرافيا خاصة جغرافية العالم الإسلامي، كما عمد إلى استقطاب كثير من المدرسين من مؤسسات "التعليم المدني" حتى يتولوا التدريس في هذه الحقول المعرفية.